

العالم يحتفي بمئوية دوستوفسكي بروميثيوس الجديد

كاتب عانى ومازال يعاني من الصور المغلوطة عنه



كاتب استثنائي تسيد فن الرواية

أعماله، فهو دوما تحت تأثير الضغط والدائرين، يعمل في عجلة، دون أن تتيسر له فترة كافية لقراءة ما كتب. وقد يدفعه هذا إلى كتابة روايتين "المقامر والجريمة والعقاب" في وقت واحد.

في مرآة ذاته

في رسائله التي قام بترجمتها خيري الضامن في جزأين الكثير من التفاصيل عن حياته وعلاقاته بالآخرين وأرائه فيهم والتي تكاد تكون صادمة بعض الشيء، فغولياكين، عنده، "اسم على مسمى، سافل وديني لا أحد يصل إلى مقامه"، ونكراسوف "نصاب بالفطرة"، وكذلك ظروف كتابته لأعماله، وغيرها من تفاصيل دقيقة تقدم هي الأخرى صورة بلا رتوش بقلمه عن نفسه، دون أن يقصد بالطبع.

وتحضر في الرسائل شخصيات عائلية كاملة ماريا دوستوفسكايا وأبيه ميخائيل دوستوفسكي وأخيه ميخائيل وقد حظي بعدد كبير من الرسائل، وكان ثمة تبجيل له، ويصفه دوما بصديقي الغالي وأخي الحبيب، كما يتناقش معه حول أمور أدبية ومشاريع كتابية وترجمة، وفي مراجعاته لترجمة أخيه، نراه مدققا خبيرا، يصحح الهنات ويعيد صياغة الجمل في الأشعار، كما نستشعر في الرسائل هم الدين الذي يؤزق مضجعه ليلا ونهارا، وخططه من أجل الحصول على المال، وحنه لأخيه على الكتابة والترجمة، ويرد أيضا خاله وزوجته (وفي رسائلهما يكشف عن شخصية مُحبة لأفراد عائلته باعتذاره عن عدم التواصل، وإن كان ثمة تبرير مرجعه انشغاله بدروسه، إلا أنه لا يعفي نفسه من الذنب).

منذ الاستيقاظ مرورا بالكتابة باناقته الكاملة التي لا تفارقه أبدا، وكذلك عاداته في شرب الشاي (الذي كان يجد لذته في صنعه بنفسه) والسجائر اللطيفة، دون أن يتخلوا عن إنسانيته وروحته المرحة حتى وهو في أثناء غسله الصباحي بغنائه بصوت ناعم أغنية قصيرة لا تتغير. كما يجمعون على أنه كان أبا رؤوما في عنايةه بأولاده واللعب معهم وإشرافه على طعامهم قبل الرقاد، وأيضا وهو يخصص الأبواب كلها قبل النوم، فهو في حياته اليومية مثل سلوكه في الكتابة، يحرص على أن ينجز كل شيء بدقة وبتأن واضح.

دوستوفسكي كان
متابعا جيدا لما يصدر في
المجلات، فيقرأ سواء ما
كُتب عنه أو عن أعمال غيره

ومتلما تناول المقرَّبون منه كل ما يحيط بجوانب حياته، توفَّقوا أيضا بالتزامن عند جوانب الإبداع عنده، لما يعكسه الإبداع والأدب من قيمة كبرى؛ فالأدب هو وطنه على نحو ما وصفه الناقد نيقولاي ستراخوف، أما عن طرائق الكتابة فكانت تقول زوجته أنا كان يكتب بسرعة غير عادية، وإن كان معروفا عنه أنه صاحب اللحظات الأخيرة في الكتابة "فكان يشرع في الكتابة فقط عندما يظل الوقت المحدد ضئيلا جدا". وكان لتأثير حالة الفاقة التي عانى منها دوستوفسكي طوال حياته أثرها البالغ على حالة عدم الرضا التي كان يُقابل بها

تختلف كثيرا عما كتبه أصدقاؤه وناشروه في تقديم أبعاد مُتعددة لشخصيته. فجميع من كتبوا عنه لم يتوقفوا عند جوانبه السلوكية وحدود علاقاته بالآخرين (الأقارب وغيرهم) أو حتى الأدبية وتقييم أعماله فحسب، وإنما رسموا تابلوهات بالألوان له عن شخصيته بما فيها هيئته الخارجية وسلوكه اليومي، وعاداته، في الطعام والشراب، وما يطيب له منها، ومسكنه وصحته، وكذلك علاقاته النسائية التي لم يات ذكرها في مذكرات زوجته، وهو ما رصده الروائي البريطاني اليكس كريستوفي في كتابه "دوستوفسكي عاشقا: حياة عاطفية"، وأيضا حروبه المتواصلة مع الدائنين وهو الأمر الذي سرد الكثير منه، بلا خجل، في رسائله حيث استغاثاته (المكررة) للناشرين ولزوجته لإمداده بالعاجل من المال، كي يتخلص من الورطبات التي أوقعت فيها هوايته للمقامرة، ومع هذا فقد أجمع كل من تناولوا شخصيته بأن جميع البشر، بما في ذلك المتحاملين عليه، قد وقعوا تحت تأثير سحره وفننته.

والصورة التي رسمها أفراد العائلة (الزوجة والأبن والأبنة) هي صورة لأب مثالي، يظهر تقديسه للحياة الأسرية ولا يتخلل عن التزاماته العائلية، دون أن يكون حائلا أمام رغباتهم، وإن أظهر في بعضها غيرته اللامحدودة، وكان هذا الالتزام حاضرا في موقفه من سداد مديونية أخيه ميخائيل ووقوفه إلى جوار أسرته بعد وفاته المفاجئة، وأيضا في عدم تخليه عن ابنه بافل، على الرغم من المضايقات التي كان يُسببها له وللحيطين به. وقد تتبَّعوا فيها كل حالات الأب ومناجسه، وعاداته الصباحية

وإن فكر كل منهم على طريقته الخاصة، ويعون تبديل حياتهم والحياة المحيطة بهم، وهم مستعدون للعمل والنشاط، غير أنهم سذج، وتلك صفة أخرى لأبطال دوستوفسكي.

وأطلق الباحث الأميركي روبرت جاكسون على دوستوفسكي "أيقونة وعي الذات"، ومرجع ذلك عنده لأنه عندما "تقرأ روايات دوستوفسكي تشعر أنه إنسان أدرك أسرار الوجود بهذا القدر من العمق والنفاذ مثلما هي الحال في المعبد وأنت تقف أمام الأيقونة في أثناء الصلاة، فإذا كنت ترى في مواضيع رسوم الأيقونات والوجوه الواقعية المتحوّل بنور العالم، ففي روايات دوستوفسكي تترك الجوهر الزباني للخلق المطبوع في جسد المظهر الأرضي"، فإننا نلتصق أيضا من خلال أعماله جوانب من شخصيته، فالكثير من شخصيات رواياته كانت منوطة من واقعها، على الرغم مما لصق به من اختيار شخصيات شاذة عن المجتمع، بل ويضعها في مواقف صعبة وقاسية.

وقد دافع دوستوفسكي عن واقعيته القاسية قائلا "إن الإنسان على سطح الأرض لا يحق له أن يُعرض عما يجري على الأرض ويتجاهله، فثمة أسباب أخلاقية تمنعه من ذلك"، إلا أنها نتاج الواقع فعلى سبيل المثال شخصية المقامر وأفكاره هي نتاج الصراع أو الديالكتيك الدائر في عقل دوستوفسكي بين ولعه بالمقامرة ورغبته في الإقلاع عنها، الكثير من المشاهد الروائية هي ليست نتاج مُخيلة دوستوفسكي بقدر ما هي نتاج ما مرَّ به من أهوال وأحداث، فمشهد الإعدام الذي تعرَّض له عام 1849، عندما حُكم عليه بتهمة الانضمام إلى جماعة بروتوفسكي، هو نفس المشهد المذكور في رواية "الأبله".

وجوه دوستوفسكي

قال دوستوفسكي عن بوشكين "إن علي معاصريه ومن يجيئون من بعده أن يكتشفوا لغزه"، في رأيي كانه يقول هذا الرأي على نفسه أيضا، فكثير هي الكتابات التي تناولت حياته وسيرته، وجميعها تكشف عن أوجه متناقضة لشخصيته، فهو متقلب الأهواء، متعبد الأوجه، بل يُعد أحيانا شخصا مُفرا يُثير الشعور بالكراهية الشديدة، في حين يبدو في صورة الشخص المثالي الرومانسي النقي في مذكرات أخرى.

فلئن كانت أعماله، كما يُقرَّر نقاده على اختلاف انتماءاتهم الأيديولوجية، تكشف عن الوجه الحقيقي للمجتمع الروسي المنزور، فإن كتابات دوستوفسكي من خلال رسائله وإن كان يعترف بتواضع جم أنه لا يجيد كتابة هذا النوع، فعلى حد استعارته مقولة بطل غوغول "الرسالة سافرة، ولا يكتب الرسائل إلا الصيادلة". وكتابات الآخرين عنه أضعاف الكثير من جوانب شخصيته الحياتية والإبداعية في أن واحد؛ لتضعنا أمام صورة متكاملة أو صورة بلا رتوش لدوستوفسكي الذي لم يتورع في أول لقاء مع عاملة الأختزال أنا جريجوريفنا (التي ستصير زوجته في ما بعد) من أن يكشف لها عن حالته الصحية/ المرضية وأن نوبات الصرع تباعثه بين الفينة والأخرى.

ويمكن لنا أن نلتصق صور/ وجوه دوستوفسكي كزوج واب، وكاتب، وأيضا كرجل عادي، من خلال تلك اللوحات العذبة التي رسمتها زوجته أنا جريجوريفنا دوستوفسكايا في "مذكرات زوجة دوستوفسكي"، وكذلك ابنته لوبوف فيودوروفنا دوستوفسكايا في كتابها "أبي فيودور دوستوفسكي"، ويقدر ما حملت مذكرات الزوجة والأبنة قدرا كبيرا من المحابة والحب لشخصية الأب والزوج المبدع، إلا أن هذه الصورة لم

حين نذكر الرواية كجنس أدبي لا يمكننا أن نغفل عن ذكر أبرز أعلامها وأهم من خطوا لها طريق الترسخ في أرض الأدب جنسا جامعا ونصا فارقا تسيد كل الآداب الأخرى. ومن هؤلاء الروائي الروسي فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي الذي قدم للأدب العالمي منجزا استثنائيا جعل كل العالم يحتفي بمئويته الثانية، إذ لم يتراجع الاهتمام بنتائج هذا العبقري الروسي رغم مرور السنوات.

في مجال علم النفس الإنساني حتى أجد دوستوفسكي قد تناوله قبلي في مؤلفاته.

وتارة ثالثة يتملّ الكاتب دور المصلح الاجتماعي في تنديده بالفساد والسعي إلى إقناعه من جزوره، وتارة أخرى يتملّ دور القديس أو النبي بما احتوته هذه الأعمال من رؤى إيمانية دينية، فكما يرى نابوكوف "أن شخص دوستوفسكي يستمر في إراقة دم المسيح، ليصلوا إليه".

ويقول ميخائيل باختين في دراسته الواسعة "قضايا الإبداع عند دوستوفسكي" "إن دوستوفسكي شأنه شأن بروميثيوس جوتيه، لا يخلق عبدا مسخت شخصياتهم (مثل فعل زيوس)، بل أناسا أحرارا مؤهلين للوقوف جنبا إلى جنب مع مبدعهم، قادرين على ألا يتفقوا معه، بل وحتى على أن يتوروا في وجهه". وهذا المعنى يشي بجوهر الفكرة التي آمن بها دوستوفسكي في سعي الناس العاديين أو غير العاديين إلى التغيير، حتى لو تم هذا التغيير بالنعف أو الدم، على نحو ما رأينا في الرغبة الجموح للطالب راسكولنيكوف (بطل الجريمة والعقاب) الذي فصل من الجامعة لفقره؛ لتغيير العالم، فهو يؤمن، كما يقول غورغني فريدلندر، بحق بعض الناس (مقري المصير) في أن يصنعوا التاريخ بحرية تامة، وبحسب الحق الممنوح لهم دون أن يوقفهم الدم أو الشر.

وفي روايات دوستوفسكي نجد أن عنف المظلومين أو "معدوب الأرض"، بتعبير فرانز فانون، "عنف نيتشوي" كما يقول سارتر، وهو ما نجد له صدى عند "كيريولوف" في "الشياطين" فهو يريد أن يُسخر نفسه في سبيل إيقاظ البشرية الرافدة وحسبها على إيجاد طريق جديد، وهي الظروف التي آمن بها "فرانز فانون" بحتمية المقاومة بالنعف، بل هو أساسي في عملية التغيير السياسي على عكس ما كانت تدعو حنة أرندت وغاندي، حيث يدعو إلى "المقاومة اللاعنيفة" بوصفها مصدر قوة.

ومن ثمّ ظل أبطاله/ شخصياته على اختلاف طبيعتهم التكوينية والنفسية التي رسمها بها كراسكولنيكوف والأمير شيكين وستافروجين وإيفان كرامازوف وناستاسيا فليليونا والمفتش الكبير والمرابية العجوز (إلينا إيفانوفنا) والمغامر... وغيرهم، ظلت جميعها موضع إعجاب وتقدير وتعاطف (بالإيجاب لا السلب) في كثير من الأحيان، بل وصل الأمر إلى تبرير جرائمهم على نحو ما حدث مع راسكولنيكوف. وقد غدت صورة الأمير مشكين وهو يحمل مخلاته التي تتناقض مع لقبه الذي يحمله موضع تساؤل قراء الأبله، وبالمثل مونولوجات راسكولنيكوف بطل الجريمة والعقاب، وكذلك هلوسات إيفان مع الشيطان ظلنا موضع دهشة وتساؤلات وحيرة، ومن جانب آخر صار الأبطال / الشخصيات شخصيات أدبية لأعمال أدبية أخرى.

وكما يقول غورغني فريدلندر، خلق دوستوفسكي في أعماله نموذجا جديدا للبطل التراجيدي في القرن التاسع عشر، على غرار الأبطال التراجيديين؛ المحلّم (التراجيديا اليونانية القديمة) والمأساة الكلاسيكية القديمة (ماسي شكسبير)، وإن كانوا يتسمون بانهم أناس "بارزون" يتمتعون بوحي عميق وإرادة قوية، وهم جميعا يفكرون بالعالم بصورة متعمقة،

ممدوح فراج النابلي
كاتب مصري

أعلنت منظمة اليونسكو أن عام 2021 هو عام دوستوفسكي بامتياز، حيث تحل الذكرى المئوية الثانية لميلاده في أكتوبر القادم، فقد ولد فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي في أكتوبر 1821، وتوفي في فبراير 1881 ببيزيف في الرثة، عن عمر ناهز الستين عاما، كما أكتت اليونسكو أن الاحتفالات لا تشمل روسيا فقط، بل ستكون في مختلف بلدان العالم.

وهذه الاحتفالات تأتي تأكيداً لقيمة أديب روسيا الكبير الذي ترك أثرا هاما على الرواية العالمية؛ إذ استطاع من خلال أعماله على تنوعها (الروائية والفصحية) تجسيد الخصائص التراجيدية للحياة الروسية والأوروبية الغربية، لا ليعصره فحسب بل وللعشرات من السنين التالية.

عندما تقرأ روايات
دوستوفسكي تشعر أنه
إنسان أدرك أسرار الوجود
بعمق ونفاذ وتحس أنك
في المعبد

يكتب دوستوفسكي، وفق تعبيره، عن الواقع الجاري لما يمثله هذا الواقع من أزمة وتحول في حياة روسيا وأوروبا، فهو عصر يُمثل نهاية مرحلة ومقدمة لبداية مرحلة أخرى جديدة من التطور التاريخي الاجتماعي - الثقافي. ولا تقتصر أهمية تراث دوستوفسكي عند الأدياء فحسب، فابنستين اعترف أن "رواياته قدمت لأجل فهم نظرية النسبية أكثر مما قدمه كل تراث إيلير الرياضي".

بروميثيوس وأبطال نيتشويون

لأعمال دوستوفسكي مكانتها في الأدب العالمي بما تركته من تأثيرات على القراء من مختلف الجنسيات، فقد كان أشبه بجراح وهو يُعالج عطب المجتمع وما يعترى النفس البشرية من أضرار وعلل، فتارة يتملّ دور الحكيم في تشخيصه وغوصه في أعماق النفس البشرية؛ كاشفا عن ضعفها وهشاشتها وعجزها وخيليتها، فكما يقول رازوموخين في رواية "الجريمة والعقاب" "إنني أحب هذا، أحب أن يخطئ الإنسان، إن هذا هو امتياز الإنسان الوحيد على سائر الأحياء، وبهذه الطريقة يصل الناس إلى الحقيقة؛ أنا إنسان، وأنا إنسان لأنني أخطئ وأمتص الخبرات والتجارب من الحياة؛ لعل الخطأ الأصل خير من حقيقة تافهة".

وتارة ثانية يتملّ دور الفيلسوف في رؤيته العميقة والبعيدة لهذه الأعطاب، وسعيه لاكتشاف طبائع البشر وإدراك اختلافاتهم والنقوذ إلى أعماق أرواحهم ورسم صورة كاملة عن مختلف أشكال حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم، وهو ما حدا بالفيلسوف نيتشه لأن يقول "دوستوفسكي مُعلم النفس الوحيد الذي استغدت منه"، وهو ما أكده فرويد أيضا بقوله "دوستوفسكي معلم كبير في علم النفس، لا أكاد أنتهي من بحث

